علم المتنبي باللغة والأدب*

تصحيح كتاب الفصوص والحدود — تعليقات على ديوانه

للدكتور عبد الوهاب عزام

يعرف جمهور المتأدبين أبا الطيب شاعرا واسع المعرفة باللغة، ولكنهم لا يعرفونه إماما من أئمة اللغة في القرن الرابع كما يتبين فيما يلي :

قدمت في الكلام على نشأة أبي الطيب أنه درس اللغة والأدب، وأثبتّ رواية تتضمن أنه لقي جماعة من كبار الأدباء في عصره، ولكن هذه الرواية على ما أظهرتُه من الوهن في بعض نواحيها لم تبين كم طلب اللغة والأدب على هؤلاء الشيوخ ولا كيف طلب. وقد بينت آنفا أن رحيل الشاعر إلى الشام كان سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وهو في سن الثامنة عشرة

وما روى لنا أنه طلب الأدب على أحد في الشام إلا قول الثعالبي إن أباه رحل به إلى الشام فلم يزل يردده في مكاتبها الخ[1]

وجائز أن يكون الشاب المتوقد ذكاء قد درس الأدب واللغة على بعض أدباء الشام أيضا

والذي لا ريب فيه أن أبا الطيب بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواهدها والقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر من شعرائنا؛ وقد بلغ في هذا أن عدّ في عصره من علماء اللغة، وأن غلب الشعر عليه

وإثبات هذه الدعوى على النسق الآتي :

١ — رويت لنا حوادث وأقوال متفرقة تبين عن اشتهاره بمعرفة اللغة وتعرب عن رأي معاصريه فيه :

قال ابن الانباري : « ويحكى أن أبا الطيب اجتمع هو وأبو علي الفارسي، فقال له أبو علي : كم جاء من الجموع على وزن فِعلى ؟ فقال : حجلى وظربى، جمع حَجَل وظَرِبان. قال أبو علي : فسهرت تلك الليلة ألتمس لها ثالثا فلم أجد. وقال في حقه « ما رأيت رجلا في معناه مثله. » وهذه الجملة الأخيرة ذكرها ابن جني في مقدمة شرحه الديوان، وقال : «ولو لم يكن له من الفضيلة إلا قول أبي علي على هذا فيه لكفاه. لأن أبا عليّ، على جلالة قدره في العلم ونباهة محله واقتدائه بسنة ذوي الفضل من قبله، لم يكن ليطلق عليه هذا القول إلا وهو مستحق له عنده »

فسؤال أبي علي أبا الطيب هذا السؤال دليل على أنه لفت الناس اليه بسعة معرفته باللغة، ثم شهادته له دليل آخر

ولما وقع الجدل بين أبي الطيب اللغوي وابن خالويه في اللغة بحضرة سيف الدولة، قال الأمير : ألا تتكلم يا أبا الطيب ؟ فتكلم ونصر أبا الطيب اللغوي على ابن خالويه[1]. فسؤال سيف الدولة أبا الطيب أن يتكلم في أمر يتجادل فيه اثنان من اللغويين دليل على عدّه من علماء اللغة

ولما دخل على الوزير المهلبي في بغداد أنشد بعض الحاضرين وفيهم أبو الفرج الأصفهاني هذا البيت :

سقى الله أمواها عرفت مكانها جُراماوملكوماوبذّرفالغمرا

فقال أبو الطيب : هو جرابا، وهذه أمكنة قتلتها علما؛ وإنما الخطأ وقع من النقلة[2]

* من كتاب « ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام » للدكتور عزام الذي طبع في بغداد ويطلب في مصر من لجنة التأليف والترجمة والنشر

(١) انظر ص ٤٥

وأشجع الناس وخير الناس ؛ وقد يتجاوز ذلك الى التعريض بمن مدحه من قبل، وقد يتجاوز التعريض والتلويح الى التصريح، ثم قد يتجاوز ذلك كله الى الهجاء، اسمع اليه يقول لسيف الدولة :

وحاشى لارتياحك أن يبارى وللكرم الذي لك أن يباقى

ولكنا نداعب منك قرما تراجمت القروم له حقاقا

فانه لم يكتف بأن جعل ارتياحه للبذل لا يباريه ارتياح، وكرمه لا يطاوله في البقاء كرم، حتى جعله سيداً. فخلا وجعل الناس في موازنته حقاقاً، فلما وفد على كافور كان في أول قصيدة قالها له قوله :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

(يتبع)

محمد محيي الدين عبد المجيد
المدرس بكلية اللغة العربية

(١) انظر ص ١٢٦ (٢) انظر ص ٢٢١

وقد حكى الحاتمى أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته فى الشعر ، بل ناظره فى اللغة أيضا . وحكى أن أبا الطيب قال له اللغة مسلّمة لك ، فقال : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها ، وأعرفهم باشتقاقها ، والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك[1]

وفى هذا برهان على اشتهار أبى الطيب بمعرفة اللغة ولو كان كلام الحاتمى تهكما وسخرية أو كانت قصته كذبا

ولما نزل عند ابن العميد فى أرّجان قرأ عليه كتابا جمعه فى اللغة . قال فى الايضاح : « وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه »[2]

وقال الخالديان : « كان أبو الطيب المتنبى كثير الرواية ، جيد النقد ... وكان من المكثرين فى نقل اللغة والمطلعين على غريبها ، ولا يسأل عن شىء إلا استشهد بكلام العرب من النظم والنثر » . وقال صاحب الايضاح : « وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر[3] »

وقال ابن جنى : « ولقد كان من الجد فيما يعانيه ، ولزوم أهل العلم فيما يقوله ويحكيه ، على أسد وتيرة ، وأحسن سيرة »

٢ — وقد أثرنا بعض كلامه فى اللغة ، وذلك قسمان

مجادلته ابن جنى فى مسائل عرضت أثناء قراءة الديوان عليه ، وحسبك بمن يناظر فى اللغة والصرف ابن جنى امام اهل العربية فى التصريف ، ثم يشهد له ابن جنى الشهادة السالفة ، وعندنا من هذه المجادلات أمثلة

والثانى ما أملاه أبو الطيب نفسه شرحا لبعض شعره . وقد عثرت على نسختين من الديوان فيهما كثير من هذا الشرح ، وفيه من التبيين وايراد الشواهد ونسبة الأقوال إلى أصحابها ما يشعر القارئ أنه يقرأ لأحد أئمة اللغة

وأنقل هنا مثالين من إملائه على بعض أبيات ديوانه تبصرة للقارئ . جاء فى شرح البيت :

أحاد أم سُداس فى أحاد ليبلتنا المنوطة بالتناد :

« قال أبو الطيب : يقال أحاد وثناء وثلاث ورباع إلى عشار فى المؤنث والمذكر غير مصروف ، والفراء يصرفها إذا جعلها نكرات ، وكل ما لا ينصرف من الأسماء يصرف فى الشعر ، لأن الصرف الأصل . وهذا الذى ينسب اليه فى العدد فيقال ثنائى وثلاثى ورباعى وخماسى إلى عشارى . قال أبو النجم :

فوق الخماسى قليلا بفضله أدرك عقلا والرهان عمله

وأنشد :

ضربت خماس ضربة عبشمى أذار سداس ألا يستقيما

وللكميت :

فلم يستريثوك حتى رمـ ـيت فوق الرجال خصالا عُشارا

ولهذلى :

يصيّد أحدان الرجال وإن يجد ثُناءهم يفرج بهم ثم يزدر

وأنشدنى :

أحمّ الله ذلك من لقاء أحاد أحاد فى شهر حلال

وحكى ابن السكيت عن أبى عمرو : ادخلوا موحد موحد ومثنى مثنى ومثلث مثلث ومربع مربع وكذلك إلى العشرة . وكذلك ادخلوا أحاد أحاد وثناء ثناء وثلاث ثلاث ورباع رباع إلى العشرة . قال على (يعنى ابن حمزة راوية أبى الطيب) وقال أبو الطيب : وكان أبو حاتم تبع أبا عبيدة فى قوله فى كتاب المذكر والمؤنث : « ورباع رباع . ولا نعلمهم قالوا فوق ذلك » ثم رجع عنه فقال فى كتاب الابل : « ورباع إلى العشرة »

قال أبو الطيب : وأماليبيتنا فتصغير تعظيم كقول لبيد

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفرّ منها الأنامل

الرواية التى أعرفها خويخته . وكذا أنشده المبرد واليزيدى وثعلب وأنشدنيه المتنبى دويهية (هذا من قول على ابن حمزة) وقال الأنصارى : أنا جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب ، قال : وتصغير الأسماء على هذا المعنى كقولهم كليب وعمير . قال وما يروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرّم الله وجهه : أنا هوى ومنى سلاحى قصفره

والتنادى ، أراد التنادى بالرحيل » . اهـ

وفى شرح البيت :

إذا عرضت حاج إليه فنفسه إلى نفسه فيها شفيع مشفع

قال أبو الطيب : يقال حاجة وحاج وحاجات وحيوَج ،

(١) ياقوت : الحاتمى والصبح ص ٧٩
(٢) الخزانة ج ١ ص ٣٨٦
(٣) الصبح ص ٨٠ والخزانة ص ٣٨٩

وعلى غير القياس حوائج . وتقول العرب : فى نفسى منه حوجاء أى حاجة ، وأنشد :

ألا ليت شوقا بالكناسة لم يكن ... اليها لحاج العالمين طريق

وقال آخر :

لعمرى لقد لبّثتنى عن صحابتى ... وعن حِوَج قضاؤها من شفائيا

وأنشد لامرئ القيس :

لتقضى حاجات الفؤاد المعذب

وأنشد الفراء :

نهار المرء أمثل حين يقضى ... حوائجه من الليل الطويل

وزعم الأصمعى أن حوائج مولدة . قال أبو الطيب : وهى كثيرة على ألسن العرب خرجت عن القياس . قال البصرى (على بن حمزة) وأنشدنى أبو الطيب للشماخ :

تقطع بيننا الحاجات إلا ... حوائج يعتسفن مع الجرىّ

قال : حوائج جمع حائجة على القياس وهو صحيح . وقد ذكر ذلك ابن دريد فقال حاجة وحائجة وحوجاء » . اهـ

ذلكم مثال مما أملاه الشاعر على رواة ديوانه . وانى لراج أن ييسر الله لى عما قليل طبع الديوان مجرداً من كل شرح إلا أمالى الشاعر والمقدمات التاريخية التى تصدّر بها بعض القصائد وأحسبها من إملاء الشاعر كذلك

٣ — وقد قرئ على أبى الطيب فى مصر كتاب المقصور والممدود لأبى العباس بن ولاد فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات ، وقد عثرت على رسالة اسمها « التنبيهات على مقصور ابن ولاد النحوى » جاء فى مقدمتها :

« قال أبو القاسم : وكان هـــذا الكتاب أعنى المقصور والممدود قرئ على أبى الطيب بمصر سنة سبع وأربعين وثلثمائة ، فردّ فيه على ابن ولاد أغلاطاً وبيّنها ، واستشهد عند بعضها ، فجمع رد أبى الطيب وشواهده بعض المصريين وادّعاه لنفسه بعد خروج أبى الطيب من مصر ، وأضاف اليها أشياء من عنده غلط فيها هو وأشياء أصاب فيها . وكان هذا المدعى سمع هذا الكتاب وغيره من ابن ولاد وعنه سمعته ، وهذا المدعى يعرف بأبى الحسين الهلبى ، فاذا مرّ من تلك الأغلاط والشواهد شىء فى كتابنا عزوناه إلى مستحقه وبيناه إن شاء الله » ...

وقد قرأت كتاب التنبيهات على مقصور ابن ولاد وهو كتاب صغير فجمعت ما نسبه المؤلف إلى أبى الطيب من الرد على ابن ولاد وأثبته هنا :

« وقال ابن ولاد فى باب الشين : وذكر عن أبى عمرو ابن العلاء وعيسى بن عمرو أنهما قالا الشِذو لون المسك ، قال الشاعر :

إن لك الفضل على صحبتى ... والمسك قد يستصحب الرامكا
حتى يعود الشذو من لونه ... أسود مضنونا به حالكا

وهذا ما أخذه عليه المتنبى قبلنا فقال هو الشِذو . وقد أصاب المتنبى وغلط ابن ولاد فى فتحه

وقال ابن ولاد فى هذا الباب (باب الطاء) : والطُرق فى النسب من قولهم الطُرق والقُمدى فالطُرق أبعدها نسباً والقمدى أدناها نسباً

وهذا ما أخذه عليه المتنبى قبلنا فقال الصواب الطرق بالفاء . وقال ابن الأعرابى يقال فلان أقمد من فلان أى أقل آباء وأطرف من فلان أى أكثر آباء . وهو مأخوذ من الطرف وهو البعد . وقال الأصمعى يقال فلان بين الطرافة إذا كان كثير الآباء إلى الجدّ الأكبر . وهو عندهم مدح كما قال الشاعر :

طرفون لا يرثون منهم القُمدُد[1]

وهذا الذى حكاه المتنبى مشهور معروف من قول ابن الأعرابى والأصمعى (وهو) الصحيح . وقد ادعى هذا الرد ابن الملتقط (يريد أبا الحسن المعلى) وكذب فى ادعائه وهو من رد المتنبى

وقال ابن ولاد فى هذا الباب (باب النون) غضبى مائة من الابل معروفة كقولك هنيدة وأنشد :

ومستخلف من بعد غضبى صُريمَة
فأحربه لطول فقـــر وأحربا

وهذا ما رواه المتنبى فادعاه ابن المنبوذ (يريد المهلبى أيضاً) فقال الذى رواه أبو العباس (ابن ولاد) غضنى بالنون . وهو خطأ إنما هو غضبى بالياء . وهذا صحيح »

ذلكم أبو الطيب فى علمه باللغة وشواهدها ونحوها وصرفها ... الخ الخ

عبد الوهاب عزام

(١) هو لأبى وجزة . وصدره : أمسرون (بكسر الميم) ولا دون كل سميدع